كيف يعقل أن تكون حبة الثلج قابلة للاكتمال، وقدر الإنسان بعظمته أن يبقى منتقص الوعي؟

في رحلة اكتشاف الذات تتسع الرؤيا فتظهر تفاصيل هذا الكون الغامض مجسدة دقة الخلق اللامتناهية، فينشده الفكر لمعادلاتها الخارجة عن استيعابه المادي، وتتسمّر الحواس الخمس أمام اكتمال أشكال هذه التفاصيل الذي يفوق كل إبداع أنجزناه نحن البشر منذ بدء الخليقة وحتى هذه اللحظة. دونما طرح السؤال لا يمكن لعجلة الفكر أن تتحرك، لا يمكن للتفكير أن ينطلق ولا يمكن للحقيقة أن تظهر.. لماذا؟!

أصغر أشكال الطبيعة تعكس إبداع الوجود

بقلم: نجيب زيتوني
eebocean@hotmail.com

خمسة أحرف أبجدية تطوي مفتاح التواصل مع أبعاد الوجود الحقيقي وتشكل الخطوة الأولى لاكتشاف معنى الذات الإنسانية وامتدادها في كل شبر من هذا الكون الفسيح الغامض.

نبتكر الآلات، نشيّد الصروح والأبنية الشاهقة، نلاحق العلم في أدق تفاصيله، نعالج الأمراض القابلة للشفاء، نغوص في آلية عمل هذا الكوكب وهذه المجرة بعناصرها المتعددة، لكننا نقف عند عتبة الحقيقة عاجزين عن احتوائها أو حتى القبول بها متذرعين بأننا لا نملك معادلات علمية صحيحة لها.

حبة ثلج من السماء

أمام هذا المجد الذي نتغنى به، والذي لا مجال لنكران أهميته في مسيرة الجنس البشري، تسقط من السماء حبة ثلج تكاد لا ترى بالعين المجردة، لتضع كل إنجازاتنا في خانة الاستفهام لما تتمتع به هذه الحُبيبة من اكتمال في الشكل والمضمون، فنتوقف عاجزين عن الفهم أو التفسير.

كان لي لقاء فريد مع هذا العنصر الطبيعي الذي ما كنتُ لأتعرف إليه لولا اختياري بلاد المجر (Hungary-Budapest) لقضاء إجازة قصيرة فيها خلال الشهر المنصرم. ففي اليوم الأخير لإجازتي تساقطت ندف الثلج فوق رؤوس المارة في بودابست، وكان من المستحيل أن أغض النظر والفكر عن روعة التواصل الذي دار بيني و بين حبة ثلج اختارت معطفي لتستقر عليه.

تجدر الإشارة إلى أن مدينة بودابست تعلو عن سطح البحر في أعلى نقطة لها ما يعادل الـ 527 مترا، ودرجة الحرارة ذلك اليوم كانت تقارب السبعة تحت الصفر.

مَنْ لم يمعنْ النظر في حُبَيْبَة الثلج، هذا العنصر الصغير الذي يشاركنا الحياة على كوكب الأرض، فاته ما لم يخطر بباله من روعة الوجود الذي يحاكينا في كل لحظة من وقتنا الضائع عبثاً. فحبة الثلج تلك، تفوق بجمالها وتركيبتها أعمق المفاهيم التي نتناولها في الفن والفلسفة والعلم (راجع الرسوم البيانية).

لقد أسهب العلم في البحث والتمحيص حول حُبيبات الثلج وأصدر من المؤلفات ما يمتّع العين ويشغل الفكر في أشكالها مثل:

The art of the snowflake: a photographic album أو The snowflake: winter•s secret beauty لـ Kenneth libbrecht.

وقد توصل الكتّاب إلى تحاليل «معمقة» حول كيفية تكوينها «فيزيائيا». فرحلتها تبدأ، حسب العلم، عند تبخّر الماء وارتفاع البخار في الفضاء متحولاً إلى ما نعرفه بالغيوم، وعندما يحل فصل الشتاء، وتحت تأثير درجة حرارة منخفضة جداً «درجة تجمّد المياه» يبدأ هذا البخار بالتكثف حتى يصبح ندفاً من الثلج تتساقط بفعل الثقل متجهة نحو الأرض وهي تتابع تكثفها لتأخذ شكلاً جليدياً بسيطاً، سداسي الأضلع بأبعاد ثلاثية «راجع الرسم البياني رقم 1».

لكن اختلاف درجة الحرارة «هبوطاً» بين منطقة وأخرى واشتداد الضغط الجوي يجعلها تتطور باتخاذها أشكالاً أكثر تعقيداً، فهي تستقطب ذرات المياه المتبخرة في الهواء إلى محورها التي بدورها «ذرات المياه المتبخرة» تتراكم وتتكثف منطلقة من المحور إلى المحيط تحت وطأة الهواء والضغط الجوي مشكّلة بذلك ستة أطراف متساوية الطول والعرض تشبه إلى حد بعيد أغصان الأشجار أو تفرعاتها بتفاصيلها وتعرف بلغة العلم : Branches أو

علينا أن نحيا كعلامة سؤال على هذه الأرض وإلا فاتنا معنى الحياة وهدفها

Dendrite" راجع الرسم البياني رقم 2».

وعندما تلامس حبيبات الثلج بشكلها النهائي الأرض، يقفل العلم البحث ويطوي الملف في درج الإنجازات البشرية العلمية، مريحاً ضميره من ملاحظة تلك الاستنتاجات التي قدمها للعامة.

الشكل الهندسي للثلج

إلا أن الأسئلة تبقى قائمة: لماذا تتخذ حبيبات الثلج هذا الشكل الهندسي البديع المتكامل؟ لماذا هذه الرحلة المثيرة لبخار الماء عبر عشرات القواعد والتحولات الفيزيائية، ليسقط على الطريق فندوسه بأقدامنا من دون مبالاة؟ لماذا تحتضن الطبيعة ما يفوق استيعابنا من تحاليل وتفاسير؟

هنا يأتي دور مَنْ لا يتوقف عند ظواهر الأمور بل يغوص في أبعادها اللامادية وعلة وجودها غير المنظورة... يأتي دور علم الحقيقة وليس الواقع، علم الأسباب وليس النتائج... يأتي علم الإيزوتيريكليضع بعض ما يمتلك من نقاط على الحروف المبهمة لدى العلوم الأخرى.

لقد بات يعلم كل من اطلع على مؤلفات الإيزوتيريك الواحد والأربعين (حتى تاريخه)، يعلم علم اليقين أن الطبيعة بكل عناصرها إنما وجدت كي تقدم للإنسان ما يحتاجه من حقائق في سبيل تسهيل تطوره في الوعي كهدف وجودي. إذ إن المعرفة هاجعة في طوايا الوعي الإنساني. انطلاقاً من أن كل موجودات الكون تقوم على معادلات رقمية هندسية البنيان وإلا لما وجدت، وأن علم الرقم هو الذي أمّن للإنسان مكانته العلمية ومهد له طريق النجاح والتطور على جميع الأصعدة، ومن ينكر هذه الحقيقة فليعد النظر بما قدمه بيتاغوروس واينشتاين وأمثالهما من كشوفات للإنسانية جمعاء، فندرك دون ريب معنى الإيمان العلمي التطبيقي بعظمة الرقم.

عظمة وسر الأرقام

من مجرد النظر إلى حبة الثلج، وأمام أعين أبسط الناظرين الذين قد لا يمت العلم لهم بصلة، يظهر الرقم سبعة واضحاً جلياً وواقعاً لا يدحض «راجع الرسوم البيانية»، فبين محور كل حبة ثلج وأضلعها الستة عند المحيط يثبت الرقم سبعة وجوده الساطع والذي إن دل على شيء فهو يدل على الاكتمال، اكتمال المظهر والشكل.

نستنتج بادئ ذي بدء، وبالمنطق البديهي، أن الاكتمال «الذي ربما لم يحققه الإنسان بعد» يسكن حبة الثلج بالقوة والفعل من خلال الرقم سبعة. فهي اكتملت في وجودها، وبالتالي حققت الهدف الذي من أجله وُجدت. فوجود أي عنصر في هذا الكون ينطوي على هدف وإلا فإن الكون يسير في دوامة من العبثية من دون نظام وهذا ما لا يقبله العقل بمعنى «بانتفاء الهدف ينتفي الوجود».

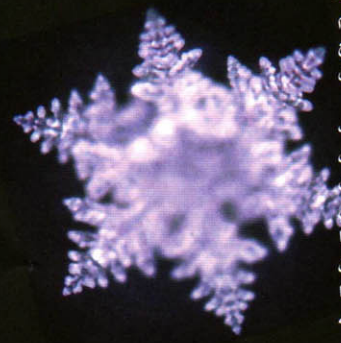

وبالمنطق البسيط عينه ومن خلال كل ما تقوله الأديان والفلسفات وحتى العلوم حول تميّز الكائن البشري عن شتى المخلوقات الأخرى، تنطلق تساؤلات الفك: كيف يعقل أن تكون حبة الثلج قابلة للاكتمال، وقدر الإنسان بعظمته أن يبقى منتقص الوعي؟ كيف يمكن لهذا العنصر الذائب أن يتكامل، والإنسان ما زال يهيم بعيداً عن معنى الاكتمال؟

إذا كان الخالق قد رفع من شأن الإنسان ونصبّه سيداً على الأرض، فلا بد انه «الإنسان» يمتلك ما هو أسمى وأرفع درجة مما يعيه.

المنطق أداة الفكر

المنطق أداة الفكر الوحيدة للتعبير والاستيعاب، لا يتغير ولا يتبدّل بل يتسامى كلما ولج مستوى أسمى من الأفكار والأطروحات فيربط بين المنظور والخفي، بين المادة واللامادة. هكذا يتفتح الوعي على وجوده فيتطور الإنسان كي يعي هدفه في الحياة، هدفه في المصير والقدر.

«المستحيل» من نسج الكسل، يقتات على خوف الإنسان من المجهول، لكن المجهول هدف وجوده أن يُكتشف فيُكشف من قبل الإنسان حيث يعي هذا الأخير هدفه في كل خطوة داخل المجهول. وكما يقول الحكماء الكبار، الذينكان دربهم التطور في الوعي: «علينا أن نحيا كعلامة سؤال على هذه الأرض وإلا فاتنا معنى الحياة وهدفها».

إن ما هو منظور في حبة الثلج لا بدّ أن يحثّ الفكر، على الأقل، لطرح تساؤلات حول باطنها وما يمكن أن يمثله اكتمالها. ولولا هذه التساؤلات لبقيت هذه الصفحات التي نقرأها الآن فارغة من الحبر، ولولاها أيضا لما استطاع الإنسان أن يكتب تاريخاً من الأدب والعلم والفلسفة والفن والجمال والتحليل..

سؤال بسيط يفتح أمام تطورنا الإنساني آفاقاً لا يحدها سوى الخوف والكبرياء الفارغ، ذلك الكبرياء الذي يدفعنا إلى الضياع بين التفاصيل فيتوه الهدف وتختفي الطريق لنحيا ونحن نتخبط في الفراغ. السر كل السر في الجرأة على التواصل الواعي مع الحياة، على الأقل مع ابنتها الطبيعة بأبسط عناصرها.

إذا كان الخالق قد رفع من شأن الإنسان ونصبّه سيداً على الأرض، فلا بد انه (الإنسان) يمتلك ما هو أسمى وأرفع درجة مما يعيه